

المحاضرة الثانية

أثر البيئة الاجتماعية والاقتصادية في الحركة النقدية والأدبية في الجزائر

وضع الجزائر أثناء فترة الاستعمار:

عاشت الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي حالة من التدهور والضعف على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي. والبيئة كما هو معروف لها أثر مبير في تنشئة الأديب، وعلى نوعية ما يبدعه، ومن بين من تحدث عن تأثير تلك البيئة نجد أحمد رضا حوحو واصفا الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي يعانيه الأديب "وإذا ألف أحدنا كتابا ليضعه في رفوف المكتبة الجزائرية الفارغة وقف محتارا أين يطبعه وهو من يتكفل بطبعه، ومن يتكفل بتوزيعه، ثم من أين له النقود اللازمة لنفقات الطبع الباهظة، وهو من الذين تجوز فيهم زكاة الفطر".

وعلى خلاف هذا القول يرى ابن منصور أن الوضع الاجتماعي ليس عائقا أمام الابداع، حيث يقول: "لو كان هذا صحيحا لما رأينا في ميدان الأدب كاتبا يصل ولا شاعرا يجول، ولما كان حظنا أن نستمتع بأداب صفوة الأدباء القدامى والمعاصرين، لأن جلهم ولد في العدم وترعرع في المتربة، وشب في الإملاق، ومات في الحرمان، فكان الفقر يزيدهم اقتدارا على العمل".

أما حمزة بوكوشة الذي ينتمي إلى نفس التوجه الفكري الذي ينتمي إليه ابن منصور وأحمد رضا حوحو، فقد كتب ردا على الشيخ الابراهيمي؛ لأنه أحس بأنه يقسوا على الأديب ويظلمه، ومن ذلك قوله: "حدثتني نفسي عن قراءة مقالكم الممتع أن فيه شيئا من القسوة والحييف على أدباءنا، حيث وصفتموهم بالكسالى وما هم

بالكسالى، ولكن للبيئة الاجتماعية أثر بالغ فيما نحن نكابده ونعانيه من جذب في القرائح وشعور بمركب النقص، في طائفة أخرى لا تقدر إلا على السلخ والمسلخ فتسقط عند المحاكاة في هوة عميقة ما لها من قرار، وهيهاات أن ينموا الادب في أمة تكافح عن كسب الضروري من العيش، وهي مرهقة بالنوائب المتعددة والضرائب المتجددة...".

فهذه الأقوال تدل وبوضوح على صعوبة الوضع الذي آل إليه المجتمع الجزائري في تلك المرحلة من قيود استعمارية استنزفت البلاد وقيدت الحريات، وهذا ما أدى بحمزة بوكوشة إلى القول: "إن الوسط الذي نعيش فيه يفني العزائم ويخلق الهزائم".

كما ذهب الصالح بوغزال إلى كتابة مقال بعنوان: "مالهم لا ينطقون" يتحدث فيه عن بؤس الأديب الجزائري وغربته الفكرية والروحية، فيقول: "إذا كتب أو شعر لا يجد من يفهم لغته، ويقدر روحه، ويتذوق كلامه فهو لهذا ينزوي ويعتزل دنيا القلم والأدب، وينطوي على نفسه، ويلوذ بالسكوت...".

أسباب الأزمة الثقافية والفكرية:

من كل من سبق توصل الدارسون لاستقراء مجموعة من العناصر التي أسهمت في فرض تلك الأزمة الثقافية، الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

-البيئة المحافظة.

-قلة التشجيع للأدباء والمبدعين.

-صعوبة النشر والتوزيع وارتفاع تكاليف الطبع.

-الإيمان بالكثير من الخرافات داخل الاسرة الجزائرية (التبرك بالأضرحة والاولياء).

أسباب ضعف الكتابة النقدية في الجزائر:

إن أبرز ما يمكن التفكير به هو وجود محاولات إبداعية مختلفة، على صعيد الكتابة الأدبية وأن كانت غير مكتملة أو ناضجة، وهذا ما يؤدي أيضا إلى وجود محاولات أخرى إبداعية نقدية، وإن اتسمت بدورها بعدم الاكتمال أو النضج، وما يمكن الإشارة إليه أن هذه المحاولات كانت في مجملها عبارة عن مقالات نقدية بسيطة لم تصل إلى مستوى المؤلفات النقدية الكبيرة والمتعمقة. ومن أبرز العوامل التي أدت إلى ضعف هذا النوع من الكتابة النقدية نذكر:

- سيطرة الثقافة التقليدية التي تتميز بالعامية القائمة على الاستيعاب الشخصي دون موجه أو خبير، هذا يعني غياب الثقافة الاكاديمية العصرية.

- عدم وجود انتاج أدبي غزير خاصة في القصة والمسرحية، فالفن القصصي مثلا بمعناه الحقيقي لم يظهر في الجزائر الا بعد الحرب العالمية الثانية. أما المسرح فلم يكن محور اهتمام أو عناية، وإن حصل وكتب بعض العلماء في المسرح فإن تلك الاعمال تكون قليلة جدا (فالشيخ الابراهيمي مثلا زعيم الحركة الفكرية والأدبية كتب مسرحية واحدة شعرية).

- سيطرة الكثير من المثقفين الجزائريين حينها على الحركة الأدبية إذ قاموا بتوجيهها ولم يكونوا منفتحين أو متسامحين مع الثقافة العربية أي كانوا ضد الانفتاح والتجديد في حين أن أنواع أدبية كثيرة كالقصة والمسرحية والرواية هي وليدة الثقافة الغربية التي يرفضونها.

- المقالة النقدية في الجزائر حينها لم تتعرف على التيارات والمدارس النقدية التي دار حولها الخلاف والنقاش الذي خلق ما يعرف بالمعارك الأدبية كتلك التي دارت بين طه حسين والرافعي وغيرهم، والسبب في ذلك قصور الثقافة الاكاديمية عندهم وهي

مما يتسلح به الناقد المختص ليتمكن من إطلاق أحكام صحيحة وموضوعية وإقامتها على أسس من الخبرة والعلم.

-عدم اشتغال الكتاب الجزائريين بالإبداع الادبي وحده لأنهم لم يحترفوا الأدب من جهة ولحاجتهم الى نشاط أو عمل آخر للكسب من جهة أخرى، فكان معظمهم معلمون في المدارس الحرة يعملون على التدريس والتوجيه والتنشئة.

ومن المقالات النقدية التي ظهرت في هذه الفترة ما كتبه محمد الجيجلي ينقد فيه مسرحية شهرزاد لتوفيق الحكيم. كما ظهرت مجموعة من الاعمال النقدية التي تطرقت ل: "غادة أم القرى" لرضا حوجو حيث قدم محمد الشبوكي حولها دراسة نشرها بمجلته التي كانت تصدر بمدينة الجزائر (مجلة إفريقيا الشمالية) سنة 1949، كما نقدها أيضا إسماعيل العربي فتعرض لبنائها الفني واهتم بالجانب النفسي فيها، كما وصف أسلوبها بأنه مهلهل ولغتها بأنها دون المتوسط.

وكتب أحمد رضا حوجو ناقدا مسرحية الصحراء التي قدمتها فرقة "محمد الطاهر فضلاء" سنة 1953 وقد اعتبرها طفرة في مجال هذا الفن، ووجد أنها لاقت نجاحا كبيرا لأنها خلت من الأخطاء الفنية السابقة التي عرفها المسرح الجزائري في تلك الفترة، ومجمل ما يمكن قوله عن هذا العمل النقدي أنه عبارة عن أدب تقريضي لأنه لم يتناول فصول المسرحية.

ويمكن الإشارة إلى أدب التقريصات الذي ظهر في الجزائر ومنها التي كتبها الابراهيمى من مثل تقريضه لكتاب "مجالس الذكر" وتقريض ابن باديس لكتاب "محمد عثمان باشا باي الجزائر" لتوفيق المدني ثم تقريض كتاب "تاريخ الجزائر القديم والحديث" للشيخ مبارك الميلي.

كما عرفت المقالة النقدية حينها نوعا آخر من النقد التعليمي (اللغوي) يتمثل في الوقوف على تصحيح الأخطاء اللغوية، إملائية نحوية، صرفية ونحوها من مثل مقال الابراهيمى المعنون بسؤال وجوابه نشره في البصائر سنة 1950 رد فيه على من أنكر لفظ (بعل - بعلة) مع أنه ثابت في العربية، وقد اتهم فيه الأدباء الجزائريين بالكسل وقلة الاهتمام حتى أنهم ارتابوا في هذه اللفظة هل هي فصيحة أم لا، ونصحهم بالقراءة ومطالعة كتب الأدب.

مراجع الدرس:

- حمودي السعيد، أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في الحركة الأدبية والنقدية، أعمال الملتقى الوطني الأول حول النقد الادبي الجزائري، يوم 21،22 ماي 2006.
- محمد عزوي، أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في الحركة الأدبية والنقدية، أعمال الملتقى الوطني الأول حول النقد الادبي الجزائري، يومي 21،22 ماي 2006.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.